المجدد الإمام الألباني: رجلٌ بأمَّة

قال الإمام الألباني -رحمه الله-:

"أنصح كل من أراد أن يرد عليّ أو على غيري أن تكون غايته من ذلك النصح والإرشاد، عملًا بقول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»، وألّا يحمله على ذلك البغضاء والحسد؛ لأن ذلك يستأصل الدين، لقوله ﷺ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: البغضاء والحسد، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين»".

المجدد الإمام الألباني -رحمه الله- بذل جهدًا عظيمًا في خدمة أمة الإسلام بدراسته الدقيقة للأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ، فقام بتمييز الصحيح منها عن الضعيف، حيث جمع طرق الأحاديث بدقة وعناية من المصادر المطبوعة والمخطوطة، واعتنى بدراسة الآثار الموقوفة عن الصحابة وآثار التابعين، كما أحيى منهج السلف الصالح في العقيدة والفقه، وحذر من الإحداث في الدين ومن شر البدع.

ولذلك قلتُ منذ أكثر من ثلاثين سنة، وما زلت أقول: لو أنك أزلت من المكتبة جُل رسائل الدكتوراة والماجستير الشرعية التي طُبعت خلال المائة سنة الماضية ومن كل الجامعات الشرعية حول العالم، فلن تحتاج إليها ولن تُعدَّ المكتبة فقيرة. وفي المقابل: لو أزلت كتب الألباني وحدها من المكتبة، كـ"السلسلة الصحيحة" و"الجامع" وغيرهما من كتبه، لعُدَّت هذه المكتبة فقيرة.

وقلتُ: لو وُضعت كتب الألباني في كفة، وكل رسائل الدكتوراة والماجستير الشرعية والكثير من الكتب الجيدة في كفة أخرى، لرجحت كفة كتب الألباني بارتياح. وهنا المفارقة، فهو عالم بأمة.

السؤال: هل أُعطيَ الإمام الألباني حقه؟

قال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من لم يُجِلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقّه».

الجواب:

الإمام الألباني -رحمه الله- حظي بالتقدير والاحترام الذي يليق بمكانته العلمية من قبل عدد كبير من العلماء وطلبة العلم في العالم الإسلامي. لقد أشاد بجهوده وإسهاماته الجليلة العظيمة في خدمة السنة النبوية وتوضيح مسائل العقيدة والفقه كبار العلماء، وعلى رأسهم: الشيخان الكبيران عبد العزيز بن باز ومحمد بن صالح العثيمين، وكذلك الشيخ أحمد شاكر، والشيخ حامد الفقي، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ الشنقيطي، والشيخ التويجري، والشيخ حماد الأنصاري، والشيخ مقبل الوادعي، والشيخ ربيع المدخلي، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ عبد المحسن العباد، والشيخ حسن عبد الوهاب البنا، والشيخ الجابري، وغيرهم كثيرون. فهؤلاء العلماء الكبار وغيرهم الكثير عرفوا فضل الإمام الألباني، وأثنوا على علمه وجهوده العظيمة.

إلا أن هناك من لم ينصف الإمام الألباني، وقد يعود ذلك إلى أسباب منها الحسد والغيرة، فالاختلاف في التقدير قد يكون نابعًا من عدم الرضا بما قسمه الله للعباد من مكانة ونعمة. إن الحسد يُعتبر من الآفات التي قد تُعمي البصيرة وتقود إلى التقليل من شأن الآخرين وعدم الاعتراف بفضلهم، وهو أمر نهى عنه الشرع وشدد على خطورته، كما قال رسول الله ﷺ: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

فهذه الأمراض النفسية والقلبية عميقة، ولذلك قال الإمام الألباني -رحمه الله-: ”من أراد أن يرد عليّ... ألّا يحمله على ذلك البغضاء والحسد؛ لأن ذلك يستأصل الدين“.

قد يشعر البعض بالحسد تجاه الألباني وكل من تفوّق عليه بما قدّره الله له في هذه الدنيا، والسبيل لسلامة القلب والنفس إرشاد النبي ﷺ لأمّته بقوله: «انْظُرُوا إلى مَن هو أَسْفَلَ مِنكُمْ، ولا تَنْظُرُوا إلى مَن هو فَوْقَكُمْ؛ فَهو أَجْدَرُ أنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». وقال ﷺ: «إذا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إلى مَن فُضِّلَ عليه في المالِ والخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إلى مَن هو أَسْفَلَ مِنْهُ».

ومن كيد الشيطان ووساوسه أنه يوهم الإنسان بأنه يستحق نجاحًا أو مكانة أو قدرًا لم يُكتب له في هذه الدنيا، لكن المؤمن الذي يؤمن بالقدر خيره وشره حقًّا لا تأخذه المشاعر السلبية ولا يستسلم لمثل هذه الوساوس الشيطانية.

فينبغي على المسلم أن يتذكر دائمًا أن الشيطان خرج من الجنة بسبب عدم رضاه بما قدّره الله له، ورفضه لمكانته التي وضعه الله -تعالى- فيها مقارنة بآدم -عليه السلام-، ولذا قال الله -تعالى- في كتابه العزيز مخبرًا عن الشيطان: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، وقال -تعالى-: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

إن طغيان الشيطان وخروجه عن طاعة ربه نابع من رفضه للتفاضل والتفاوت الذي قدَّره الله بين خلقه، وشعوره بأنه هو أولى وأفضل من غيره. وهذا يخالف جوهر العبودية لله، والتي تقتضي كمال الانقياد والاستسلام والخضوع لأمر الله وقدره.

قال ابن تيمية -رحمه الله-:

”لَوْ أَمَرَنَا [الله تعالى] أَنْ نَسْجُدَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ غَيْرِهِ لَسَجَدْنَا لِذَلِكَ الْغَيْرِ طَاعَةً لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؛ إِذْ أَحَبَّ أَنْ نُعَظِّمَ مَنْ سَجَدْنَا لَهُ، وَلَوْ لَمْ يَفْرِضْ عَلَيْنَا السُّجُودَ لَمْ يَجِبْ أَلْبَتَّةَ فِعْلُهُ. فَسُجُودُ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ عِبَادَةٌ لِلَّهِ وَطَاعَةٌ لَهُ وَقُرْبَةٌ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ لِآدَمَ تَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ وَتَعْظِيمٌ“. قال -تعالى-: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولتوضيح الحقيقة على لسان العلامة ابن عثيمين، حيث قال -رحمه الله-: ”الحسد خلق ذميم، ومع الأسف أنه أكثر ما يوجد بين العلماء وطلبة العلم. ويوجد بين التجار فيحسد بعضهم بعضًا، وكل ذي مهنة يحسد من شاركه فيها، لكن مع الأسف أن الحسد بين العلماء أشد، وبين طلبة العلم أكثر. مع أنه كان الأولى والأجدر أن يكون أهل العلم أبعد الناس عن الحسد، وأقرب الناس إلى كمال الأخلاق“.

وقال ابن عثيمين أيضًا: ”إن الحسد لا يستفيد منه الحاسد إطلاقًا، بل لا يزيده إلا غمًّا وحسرة. اطلب الخير للغير تحصل على الخير، واعلم أن فضل الله يؤتيه من يشاء...“.

وقال ابن عثيمين كذلك: ”الحاسد في ظروف طالب العلم مشكوك في نيته وإخلاصه في طلب العلم؛ لأنه إنما حسد لكون الثاني قد صار له جاه عند الناس وله كلمة والتف الناس حوله، فحسده. أما أن تحسده وتشوه سمعته وتذكر فيه من العيوب ما ليس فيه، فهذا لا شك أنه بغي وعدوان...“.

وقصة يوسف -عليه السلام- وإخوته تجسد بشكل واضح ما أشار إليه العلامة ابن عثيمين مِن حسد مَن رزق المكانة والشأن والجاه ومحبّة الناس. فقد شعر إخوة يوسف -عليه السلام- بالغيرة والحسد تجاهه -عليه السلام-؛ نظرًا لحب أبيهم يعقوب -عليه السلام- الشديد له، مما أدى إلى امتلاء قلوبهم بالكراهية والحقد عليه، حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير في قتله، كما بين الله -

تعالى- في كلامه العزيز عن قولهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

إن الحسد والغيرة دفعا الإخوة العشرة لإرادة قتل يوسف -عليه السلام-، بهدف تحقيق غايتهم وهي الحصول على محبة أبيهم دون منازع، وكما قال المفسر السعدي: "يتفرغ لكم -أي يعقوب عليه السلام- ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلًا لا يتفرغ لكم". فهكذا الحاسد يصل إلى هذا الحد، ثم جاء فضل الله على إخوة يوسف فمنَّ الله عليهم بالتوبة.

فالحسد مدمر للإنسان، قد يسقط الحسدة مشاعرهم السلبية تجاه من كان ذا نجاح وتميز ومكانة كالمجدد الإمام الألباني -رحمه الله-، فتدفعهم أمراضهم إلى عدم ذكر حق وفضل الإمام الألباني بحق تعمُّدًا؛ كسبيل لتجنُّب مواجهتهم لنقصهم النفسي ومرضهم القلبي.

قال ابن عثيمين -رحمه الله-:
"من رمى الشيخ الألباني بالإرجاء فقد أخطأ؛ إما أنه لا يعرف الألباني، وإما أنه لا يعرف الإرجاء. الألباني رجل من أهل السنة -رحمه الله-، مدافع عنها، إمام في الحديث، لا نعلم أن أحدًا يباريه في عصرنا، لكن بعض الناس -نسأل الله العافية- يكون في قلبه حقد؛ إذا رأى قبول الشخص ذهب يلمزه".

قلت: في يوم من الأيام، قال لي أحد التكفيريين: إن الألباني فَعَل ما فَعَل لله -تعالى-، فهو لا يحتاج منا إلى الشكر والدعاء والثناء لمعرفة حقه، ألم يقل ربنا -تعالى-: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾؟!

فقلت له: صح عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: "يا رسولَ اللهِ، لقد سمعتُ فلانًا وفلانًا يذكُرانِ خيرًا، يحسنان الثناء، يزعُمانِ أنك أعطيتَهما دينارينِ". فقال النبيُّ ﷺ: «لكنَّ فلانًا ما يقولُ، لقد أعطيتُه من عشرةٍ

إلى مائةٍ فما يقولُ! وإنَّ أحدَهم يخرجُ بمسألتِه من عندي متأبِّطَها -يعني: نارًا-». فقال عمر: "يا رسولَ اللهِ، فلِمَ تُعطيهم؟". قال ﷺ: «يأبَونَ إلا ذاك، ويأبى اللهُ لي البخلَ».

فالشكر ومعرفة الحق لصاحب الفضل واليد أمر شرعي واجب على المسلم.

قال الإمام ابن باز -رحمه الله-: "حديث صحيح، يقول النبي ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»، يعني: أن مَن كان مِن طبيعته وخلقه عدم شكر الناس على معروفهم وإحسانهم إليه، فإنه لا يشكر الله؛ لسوء تصرفه وجفائه...".

قلت: قال رسول الله ﷺ: «لو كان مطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النَّتنى -أسرى بدر من كفار قريش، فشفع فيهم- لأطلقتهم له» وإن فعلوا ما فعلوا؛ فإن لمطعم بن عدي فضل ويد، علمًا بأنه رجل كافر بالله وبكتابه وبنبيه، مع كل هذا قال ﷺ: «لو أنه كلمني في هؤلاء النَّتنى لأطلقتهم له».

هذا هو النهج النبوي مع صاحب الفضل واليد: الوفاء العلني على رؤوس الأشهاد، لا التخلف والاستحياء وضعف بيان الفضل أو الامتناع عنه، فالسنة أن يُذكر فضله ولو بعد وفاته، ولو كان صاحب اليد كافرًا.

قال ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير». وقال ﷺ: «مَن أُعْطِيَ عطاءً فوجَدَ فليَجْزِ به، فإن لم يَجدْ فليُثْنِ به، فمن أَثْنى به فقد شَكَرَه، ومَن كَتَمَه فقد كَفَرَه»؛ أي: فمَن جهر فمدح وأثنى خيرًا على صاحب الفضل واليد فقد شكره؛ أي: اعترف بحقه.

وانظر إلى وضوح هدي رسول الله ﷺ العملي الفعلي العلني بقوله: «ما لِأَحدٍ عندَنا يَدٌ إلَّا وقد كافأناهُ، ما خلَا أبا بكرٍ، فإنَّ لَهُ عِندَنا يَدًا يُكافِئُهُ اللهُ بِها يَومَ القيامَةِ. وما نفَعَني مالُ أحَدٍ قطُّ ما نَفَعِني مالُ أبي بكرٍ».

فهذا النهج الشرعي السني بينه رسول الله ﷺ لأصحابه -رضي الله عنهم أجمعين-، فعن أنس -رضي الله عنه- أن المهاجرين قالوا: "يا رسول الله، ذهبت الأنصار بالأجر كله"، قال ﷺ: «لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم».

الإسلام يعظم الوفاء والإحسان لكل ذي فضل، مذكيًا فينا واجب الاعتراف بالجميل سواء كان ذلك مع البشر أو حتى مع الدواب، وقد جاء في الحديث الصحيح قصة المرأة الأنصارية التي هربت من كفار قريش على ناقة، ونذرت أن تذبحها إن نجت، فأنكر عليها النبي ﷺ وقال: «سُبْحَانَ اللهِ! بِئْسَما جَزَتْهَا». فالوفاء والإحسان واجبان شرعًا،كما قال -تعالى-: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

لذلك أقول: إنَّ حق وفضل الإمام الألباني -رحمه الله- علينا كبيرٌ لا يمكن حصره، فقد كان علمًا من أعلام الأمة الذين أناروا لنا الطريق في فهم السنة النبوية وتمييز صحيح الأحاديث من ضعيفها، والاهتمام بدراسة الآثار المروية عن الصحابة والتابعين. فنسأل الله -تعالى- أن يجزي الإمام الألباني عنّا وعن الأمة الإسلامية خير الجزاء، وأن يكرمه -تعالى- بجنات الفردوس الأعلى.

الخاتمة:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم».

ذو الأخلاق مخموم القلب، سجيته أنه كريم الوفاء والحمد، فهو قائم على الوفاء في ضيق حال أو اتساع، وهو على ذلك إلى الممات.

سُئل العلامة ابن عثيمين -رحمه الله-: إذا امتنع أحد من ذكر فضل صاحب الفضل بسبب العَداوة التي بينهم، هل يعتبر أنه كتم العلم؟

فأجاب -رحمه الله-: "إن سُئل عنه [عن صاحبه] فكَتَمَه فهذا عُدوان -لا شك- وإثم؛ لأن إخفاء الفضائل كذِكْر الرذائل... ورُبَّما لا يُسْأَل لفظًا ولكن تقتضي الحال أن يُبَيِّن؛ لو رأى أحدًا -مثلًا- يذْكُره بسوء، وهو يعلم منه خيرًا، فيجب عليه في هذه الحال أن يُبيِّن الخير حتى لا يُتَّهم بالسُّوء على وجه الإطلاق، ولكن يجب على الإنسان أن يقول الحق، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ يعني: بُغْضهم ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾".

وأقول ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله رحمة واسعة-: "وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْخَطَأَ فِي دَقِيقِ الْعِلْمِ مَغْفُورٌ لِلْأُمَّةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَهَلَكَ أَكْثَرُ فُضَلَاءِ الْأُمَّةِ. وَإِذَا كَانَ اللَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ جَهِلَ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ لِكَوْنِهِ نَشَأَ بِأَرْضِ جَهْلٍ مَعَ كَوْنِهِ لَمْ يَطْلُبْ الْعِلْمَ، فَالْفَاضِلُ الْمُجْتَهِدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِحَسَبِ مَا أَدْرَكَهُ فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ، إذَا كَانَ مَقْصُودُهُ مُتَابَعَةَ الرَّسُولِ بِحَسَبِ إمْكَانِهِ، هُوَ أَحَقُّ بِأَنْ يَتَقَبَّلَ اللَّهُ حَسَنَاتِهِ وَيُثِيبَهُ عَلَى اجْتِهَادَاتِهِ وَلَا يُؤَاخِذَهُ بِمَا أَخْطَأَ، تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾".

رحم الله المجدد الإمام الألباني رحمةً واسعةً، فقد كان مدافعًا ومنافحًا عن السنة النبوية وأصولها، ودعا الناس بقلمه وتسجيلاته المنتشرة في الآفاق إلى المنهج القويم الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه بسندٍ صحيح، وإلى ترك البدع. وآثار الإمام الألباني -ولله الحمد- تملأ المكتبات والكتب، كذلك المحاضرات والخطب، وتنتشر أحكامه عبر الأجهزة الحديثة، لتكون دليلًا للباحثين عن الحق ومرجعًا للعالم وطالب علم والجميع.

كتبه: محمد عثمان العنجري
الثلاثاء ٢٤ محرم ١٤٤٦هـ
الموافق ٢٠٢٤/٧/٣٠م